

الاقتراء على رب العالمين

ففيما يتعلق بمقام العقل في الإيمان الإسلامى ، وفى الفكر الإسلامى . . فلقد تجاهل عظيم الفاتيكان الذى درس الفلسفة ودرّسها - أن الله - سبحانه وتعالى - فى الإيمان الإسلامى من أسمائه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ . . وأنه هو ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ و ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ . . وأنه هو الذى [أنزل الكتاب والحكمة] . . وأنه - سبحانه وتعالى - إنما بعث رسوله محمداً ﷺ ليعلم الناس ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . . وحتى نساء النبی ﷺ أشار القرآن الكريم إلى ما يتلى فى بيوتهن ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ . . وأن ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . . ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] - ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] - ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩] - ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢٤] - ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣] - ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة: ٢٣١] - ﴿ وَاذْكُرْ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] - ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

ولقد ورد فى القرآن الكريم وصف الذات الإلهية بالحكيم فى مائة آية من آيات هذا القرآن . . كما وردت فيه الآيات التى تتحدث عن العقل والتعقل فى ٤٩ آية . .

وعن القلب، كأداة للتعقل، فى ١٣٢ آية . .

وعن الفقه، بمعنى الوعى العقلى، فى ٢٠ آية . .

وعن الحكمة فى ١٩ آية . .

وعن التفكير فى ١٨ آية . .

وعن اللب، بمعنى العقل والجوهر الإنسانى، فى ١٦ آية . .

وعن الاعتبار، بمعنى التعقل، فى ٧ آيات . .

وعن التدبر فى ٤ آيات . .

وعن النهى، بمعنى العقل، فى آيتين . .

أى أن القرآن الكريم - الذى هو معجزة عقلية، تستنفر العقل للتعقل، ولا تدهشه، كالمعجزات المادية، فتشله عن العمل - قد جاء فيه الحديث عن العقل والحكمة فيما يقرب من ثلثمائة آية . . وذلك فضلا عن مائة آية ورد فيها - بالنص - وصف «الحكيم» كواحد من أسماء الله الحسنى .

بل لقد جعل القرآن الكريم تنكب العقلانية والتعقل السبيل إلى جهنم - والعياذ بالله - ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك: ١٠، ١١] .

• ثم . . ألم يسمع عظيم الفاتيكان أن رسول الإسلام ﷺ قد قال: «العقل أصل دينى» . .

وقال: «عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً» - رواه الدارمى . .

• وألم يقرأ لابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨م] - الذى أخرجت عقلانيته الإسلامية أوروبا من خرافات اللاهوت الكنسى - كيف جعل «دليل العناية والرعاية» - وهو قمة الحكمة والعقلانية - دليلاً على وجود الله - سبحانه وتعالى - ؟ . . وكيف أعلن أن «الحكمة» هى الأخت الرضيعة «لشريعة الإسلام»؟

● وألم يسمع - عظيم الفاتيكانيان - عن المعتزلة والتيار العقلاني في الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية، الذين تجاوزوا ما اتفق عليه غيرهم من المسلمين من أن الله - سبحانه وتعالى - لا يجوز عليه ولا يليق به - لفرط الحكمة المطلقة في مشيئته وفعله - إلا فعل الصلاح والأصلح . . تجاوز المعتزلة ذلك، فأوجبوه على الله!!! . .

ولقد استندوا في ذلك إلى فهمهم للقرآن الكريم، الذي جاء فيه أن الله - سبحانه وتعالى - قد ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] .

● وألم يقرأ - عظيم الفاتيكانيان - ما كتبه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م] - وهو أستاذ للعديد من الفلاسفة والقديسين المسيحيين - عن العلاقة العضوية بين العقلانية وبين الشرع والقرآن في الإسلام . . وكيف شبه العقل بنور البصر، والشرع بنور الشمس وضياؤها . . ومن ثم حكم بأنه لا قيمة لأي منهما إذا انقطع عن الآخر . . وقال :

«إنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول . . فمثال العقل : البصر السليم من الآفات والأداء، ومثال القرآن : الشمس المتشرة الضياء . . والمستغنى بأحدهما عن الآخر إنما يكون في غمار الأغبياء . فالمعرض عن العقل، مكثفياً بنور القرآن، مثاله : المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان ! فالعقل مع الشرع نور على نور^(١) . . وأتى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر البحث والنظر؟

أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر؟ . .

إن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها^(٢) . . وعند إشراق نور الحكمة بصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار،

(١) حجة الإسلام الغزالي [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٢، ٣ . طبعة مكتبة صبيح - القاهرة . بدون تاريخ .

(٢) الغزالي [مشكاة الأنوار] ص ٣٦ . طبعة القاهرة ١٩٠٧ م .

فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً، فمثال القرآن : نور الشمس، ومثال العقل : نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن : ٨] . . وما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول^(١) . . والوحى الإلهى والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل^(٢) . . فلهذا كان رأسمال كل السعادات العقل^(٣) . .

وقول الغزالي - كذلك - فى شرح الآية الكريمة : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء : ٧٠] «فكان من أعظم ما شرفه به الله وكرمه : العقل، الذى تنبه به على البهيمية، وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر فى مخلوقاته، والاستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من حكمة»^(٤) .

● وألم يعلم - عظيم الشاتيكان - أن الإسلام قد جعل «الشك المنهجي» علماً . . وأوجب تعلمه . . لأنه هو الطريق إلى اليقين . . حتى قال الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥هـ/ ٧٨٠ - ٨٦٩م] :

«فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلمًا، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . . فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك . فلا تذهب إلى ما تركك العين، واذهب إلى ما يريك العقل، وللأمور حكمان : ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة»^(٥) .

● وقول الماوردى [٣٦٤ - ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ - ١٠٥٨م] :

-
- (١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٢، ٣، ١٢٢ .
 (٢) الغزالي [المضنون به على غير أهله] ص ٣١٨ . طبعة القاهرة - ضمن مجموعة [القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالي] - مكتبة الجندى - بدون تاريخ .
 (٣) الغزالي [رسالة الغزالي إلى ملكشاه] ص ٦٩ - طبعة القاهرة ١٩٠٧م .
 (٤) الغزالي [أسرار المخلوقات] ص ٧٧ . طبعة تونس ١٩٩٠م .
 (٥) الجاحظ [الحويان] ج ١، ص ٣٥ - ٣٧، ج ١، ص ٢٠٢ . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة - الثانية .

«إن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيان : أحدهما : علم الحس ، وهو العقل ؛ لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول . وثانيهما : معرفة لسان العرب - وهو معتبر - فى حجج السمع خاصة...»^(١).

• وقول القرافى - أحمد بن إدريس - [٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م] :

«... والقاعدة المعلومة : أن الشرع لا يرد بخلاف العقل ، بل جميع واردات الشرائع يجب انحصارها فيما يجوزه العقل وجوداً وعدمًا ، فيرد الشرع بترجيح أحد طرفيه ، وجوده أو عدمه ، أو يسوى بينهما ، وهو الإباحة»^(٢).

• وقول القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥ هـ ١٠٢٤ م] :

«إن الأدلة ، أولها : دلالة العقل ؛ لأن به يميز بين الحسن والقيح ؛ ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع . ولربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، فقط . أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر . وليس كذلك ؛ لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ؛ ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع ، فهو أصل فى هذا الباب . وإن كنا نقول : إن الكتاب هو الأصل ، من حيث إن فيه التنبيه على ما فى العقول ، كما أن فيه الأدلة على الأحكام . وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين ، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يُذم ؛ ولذلك تزول المؤاخذه عمن لا عقل له . ومتى عرفنا بالعقل ، إلهاً منفرداً بالإلهية ، وعرفناه حكيماً ، نعلم فى كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلًا للرسول ، ومميزاً له بالأعلام المعجزة ، من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة . وإذا قال ﷺ : «لا تجتمع أمتى على خطأ» . وعليكم بالجماعة» . . علمنا أن الإجماع حجة»^(٣).

• وإذا كان بابا الثائتيكان قد جعل موضوع محاضرتة عن علاقة الإيمان بالعقل . .

(١) الماوردى [أدب القاضى] ج ١ . ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ . طبعة بغداد ١٩٧١ م .

(٢) القرافى [كتاب الأمانة فى إدراك النبوة] ص ٥٢٣ .

(٣) القاضى عبد الجبار [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ١٢٧ . تحقيق : فؤاد سيد . طبعة تونس .

١٩٧٢ م .

فكيف جهل أن فلاسفة الإسلام - ومنهم أبو على الجبائي [٢٣٥ - ٣٠٤ هـ / ٨٤٩ - ٩١٦ م] - قد قالوا: «إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر».

بل وقال الفيلسوف أبو هاشم الجبائي [٢٤٧ - ٣٢١ هـ / ٨٦١ - ٩٣٣ م]: «إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك»^(١). . . وذلك انطلاقاً من التأصيل القرآني لمنهاج «الشك المنهجي»: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] . .

● وحتى شيخ الإسلام، وإمام السلفية ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] الذي جعل عنوان كتابه [درء تعارض صريح العقول مع صحيح المنقول] . . رأيناه يعلن: أن «الخفية وكثير من المالكية والشافعية والحنبلية يقولون بتحسين العقل وتقييحه، وهو قول الكرامية والمعتزلة، وهو قول أكثر الطوائف من المسلمين»^(٢) أى أن أغلب تيارات الفكر الإسلامى - الفلسفية والفقهية - تجعل العقل مرجعية للتحسين والتقييح . .

● وإذا كان عظيم الثاينكان - وأستاذ الفلسفة - قد جهل هذا التراث الفلسفى الإسلامى القديم . . فكيف جهل تراث الإسلام الفلسفى الحديث - فى العقلانية الإسلامية - والذي قال فيه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م]:

«إن الدين الإسلامى يكاد يكون متفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيك الخاطبين فى عشواء العماية، والقده فى سيرتهم.

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة . . . وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية . وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.

(١) د. على فهمى خشيم [الجبائيان أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة طرابلس - ليبيا ١٩٦٨ م.

(٢) ابن تيمية [الفتاوى] ج ٨. ص ٤٢٨، ٤٣٣. طبعة الرياض ١٣٨١ م.

إن العقل مشرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان .

وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثانى فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟! .

لقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات! . . لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة . . والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحه . . والحكمة، وآلتها العقل، هى مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظمات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والذائل، وبالجملة، فهى قوام الكمالات العقلية والخلقية . . فهى أشرف الصناعات . .

إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصورات، فىرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً، وما صورته جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة . . (١) .

إن أول ركن بنى عليه الدين الإسلامى : صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، وسعادة الأم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدورات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم، وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة، والخوف مما لا يخيف، والفرع مما لا يفزع . .

إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس . . وقرر المزاي على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . . وعقائد

(١) جمال الدين الأفغانى [الأعمال الكاملة] ص ١٧٧، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٥ . دراسة وتحقيق :

د . محمد عمارة . طبعة القاهرة ١٩٦٨ م .

الامة - وهى اول رقم ينقش فى الواح نفوسها - يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى مطالعة الظنون فى عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقداً لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقناً، فلا يكون مؤمناً . . وأولئك المتبعون للظن، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكافت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبش المال مآلهم .

هذا هو الإسلام . . (١)

• ألم يقرأ عظيم الفاتيكان - وأستاذ الفلسفة - شيئاً من هذا الذى كتبه فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغانى . . عن تفرد الإسلام - دون غيره من الأديان - بالعقلانية . . وشهادة خصومه له بهذا التفرد؟ . . !

وهل يجوز لمثله - ممن يتصدى للحديث عن موقف الإيمان الإسلامى من العقل والعقلانية - أن يجهل هذه «المقالات» الشهيرة - حتى فى اللغات الغربية - عن العقلانية الإسلامية؟ . . !

ثم . . ألم يسمع بابا الفاتيكان عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٨ - ١٩٠٥م] - وهو الذى وضعت حول فكره وإبداعاته العديد من الرسائل الجامعية التى كتبها لاهوتيون غربيون . . والذى راسل وحاوّر العديد من فلاسفة الغرب ومفكره . . من «تولستوى» [١٨٢٨ - ١٩١٠م] إلى سبنسر [١٨٢٠ - ١٩٠٣م] إلى هانوتو [١٨٥٣ - ١٩٤٤م] . . وغيرهم . . وهو الذى صاغ فى العقلانية الإسلامية المتفردة مقالاً نفيساً، قارن فيه بين عقلانية الإسلام ولا عقلانية عقيدة بابا الفاتيكان!! . . !

ألم يسمع البابا بنديكطوس السادس عشر بما كتبه محمد عبده عن :

«أن الإنسان : كون عقلى، سلطان وجوده العقل، فإن صلح السلطان ونفذ حكمه،

(١) الأفغانى [الآثار الكاملة] ج١ . ص ٤٢، ٤٣ . جمع وإعداد: هادى خسرو شاهى . تقديم: د. محمد عمارة طبعة القاهرة ٢٠٠٢م .

صلح ذلك الكون وتم أمره . . والعقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون صحيفته التي ينظر فيها، وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه . .

والعقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة . .

ولقد تأخى العقل والدين - [فى الإسلام] - لأول مرة فى كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - : أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، كالتصديق بالرسالة نفسها . .

كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل . .

وأول أساس وضع عليه الإسلام : هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالباً غير واقف عند الظن، فهو ناج . فأى سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟

ولقد اتفق أهل الملة الإسلامية - إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه - على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه . والطريق الثانية : تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل .

ولأنه لا يقين مع التخرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان، طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد .

فالله يخاطب - فى كتابه - الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد . والوقوف عند

حد فهم العبارة مضر بنا، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات . . والقرآن قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها . . فالإسلام لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . .

والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل - ولو صالحاً - بغير فقه فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه، فيعمل الخير؛ لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر؛ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده . . فالعقل لا يقلد عاقلاً مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلاً هو دونه!

وإن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابه أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك، فيتحول الجبل! . . يليق بأهل دين تعد الصلاة وحدها - إذا أخلص المصلى فيها - كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى! . . وليس هذا الدين هو دين الإسلام!

دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥] - ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] - ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] . وأمثالها .
وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله!

إن لله فى الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل . . وهى التى تسمى شرائع أو نواميس، أو قوانين . . ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا

يتبدل . وعلى من يطلب السعادة فى المجتمع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله ، ويبنى عليها سيرته ، وما يأخذ به نفسه ، فإن غفل عن ذلك غافل فلا يتنظر إلا الشقاء ، وإن ارتفع فى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقررين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه . ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سننا ، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة ، لتقديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه ، فيجب على الأمة - فى مجموعها - أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه ، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال ، وبينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده ، كالتوحيد والأصول والفقه .

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها ، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة ، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم ؛ إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها . .

وبهذا الأصل ، الذى قام عليه الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد . . .

وبعد هذا «المقال فى العقلانية الإسلامية» ، التى تفرد بها الإسلام دون سائر الديانات . . ينبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على تميز هذه العقلانية الإسلامية بأنها «عقلانية مؤمنة» تميزت بالوسطية الإسلامية الجامعة بين «العقل» و «الوحى» - بين «السنن الكونية : كتاب الله المنظور» وبين «آيات الوحى والشرع : كتاب الله المسطور» . . فهى بريئة من «اللاهوت الخرافى» براءتها من «الغرور العقلانى» . . بريئة من العقلانية المجردة من النقل - كما كان الحال فى الحقبة الإغريقية - وبريئة من العقلانية المادية الوضعية التى جاءت - فى النهضة الأوروبية - ثورة على اللاهوت اللاعقلانى . . ولذلك ، ضبط الإمام محمد عبده هذه العقلانية الإسلامية المؤمنة . . عندما قال :

« . . فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال :

وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح إلا النهى! . . .

إن مجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعاً، ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، وينهدم بناؤها، ويفقد ما قصد بوضعها . .

وإذا قدرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى . . أما الوصول إلى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته . .

ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده . . لهذا كان العقل محتاجاً إلى معين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة . .

فالعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة . . أما النقل، فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعبادات . .

والذى علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد، والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه . .»^(١)

● وعلى هذا الدرب . . درب العقلانية الإسلامية، المتميزة بإعلاء مقام العقل، مع الوسطية التى تجمع بين العقل لعالم الشهادة، والإيمان بالنقل المصور لعالم الغيب . . أى العقلانية الجامعة بين العلم والغيب . . على هذا الدرب يسير الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] عندما يقول :

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ١٦٥، ٢٧٧. وج٥ ص ٤٢٨. وج٣ ص ٢٩٨، ٢٨٢، ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨١. وج٤ ص ٤١٤. وج٣ ص ٥٠٢، ٢٨٤. وج٥ ص ٩٤، ٩٥. وج٣ ص ٢٨٢، ٣٩٩، ٤١١، ٣٧٩، ٣٩٧، ٣٢٥. ولمزيد من نصوص الإمام محمد عبده فى العقلانية، انظر كتابنا [الإصلاح بالإسلام] ص ٨٣ - ١١٦، ١٢٣، ١٤٢، ١٥١ - ١٦٣ طبعة القاهرة ٢٠٠٦ م. وكتابنا [مقام العقل فى الإسلام].

«إن الإسلام لم يحجر على الأفكار، ولم يحبس العقول . . بل جاء يحرر العقل، ويبحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء . . » والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها .

«وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظنى منها ليتفق مع القطعى، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار . .

ولقد تذبذب تاريخ العقل البشرى بين :

١ - طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب .

٢ - وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول .

وكلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح، وغلو فاحش، وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان، فلقد جاء الإسلام الخفيف يفصل القضية فصلاً حقاً . . فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل . .

إن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله . . فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء، وتتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات . . فإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية ندعو الناس^(١) .

هكذا تبلورت فى الإسلام - الدين . . والحضارة . . والتاريخ - عقلانية مؤمنة متميزة عن غيرها من العقلانيات التى عرفتها شرائع أخرى . . وحضارات أخرى . . - فالإنسان كون عقلى . . سلطان وجوده العقل . .

- والعقل هو جوهر الإنسان . . ومن أجل القوى الإنسانية . . بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها . .

(١) حسن البنا [الرسائل] ص ٢٩٤، ٢٧٠، ٢٧١، ١١٠ - ١١٢ طبعة القاهرة - دار الشهاب - بدون تاريخ .

- ولقد تأخى العقل والدين فى القرآن لأول مرة فى تاريخ الشرائع السماوية . .
 - والله - فى القرآن - لا يخاطب إلا الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولا حد . .
 - والقرآن معجزة عقلية ، عرضت على العقل ، وعرفته القاضى فيها . .
 - والمسلم لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . .
 - والعقل هو مشرق الإيمان الدينى . .

- والسعادة الإنسانية هى من نتائج العقل والبصيرة . .

- وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدورات الخرافات وصدأ الأوهام . .

- والسببية . . والسنن والقوانين هى الحاكمة للكون والاجتماع . .

- وأول واجب على الإنسان هو النظر . . والشك المنهجى هو الطريق إلى اليقين . .

- والعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله . . والتصديق بالرسالة . . أما النقل فهو
 ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب . . فالعقل من أشد أعوان الإسلام . . والنقل من
 أقوى أركان الإسلام . .

● ثم . . من أين جاء عظيم الثايتيكان - أستاذ الفلسفة - بهذه «البدعة» التى زعم فيها
 أن مسيحيته متفوقة فى العقلانية على الإسلام؟! . .

ألم يقرأ مقارنة الإمام محمد عبده بين الدينين فى هذا المقام؟ . . وكيف أن «أحد
 أصول النصرانية - الذى لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا پروتستانت - هو أن
 الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن من الدين ما لا يقبله العقل، بمعنى ما يناقض
 أحكام العقل ومنطقه، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به . . ولقد قال القديس «أنسيلم»
 [١٠٣٣ - ١١٠٩م]: «يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر . . فليس
 الإيمان فى حاجة إلى نظر العقل، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه
 نظره»!! . . بينما أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى، والنظر العقلى هو
 أساس الإيمان الصحيح . .»^(١).

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٢٦٢، ٢٨٢ .

فأين هي العقلانية المسيحية - وهذا كلام القديس «أنسيلم»؟! . . فضلاً عن أن تكون عقلانيتها متفوقة على العقلانية الإسلامية - التي قدمنا الشواهد من مقالاتها؟! . .

لقد قرر الإسلام - وقرر فلاسفته ومفكروه - أن العقل هو الطريق إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى - لأن العقل يتفكر ويتدبر ويتعقل في الخلق، فيدرك أنه لا بد من خالق متصف بكل صفات الجلال والكمال . . ولذلك، كانت أول فريضة على الإنسان - إسلامياً - هي فريضة النظر! حتى قبل الإيمان بالكتب والنبوات والرسالات!! ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

• وإذا جاز لبابا الفاتيكان أن يجهل هذا التراث الإسلامي - القديم والحديث - في العقلانية الإسلامية - المتميزة . . والمتفوقة . . والمتفردة . . وهذا غير جائز - فكيف له أن يجهل - وهو أستاذ للفلسفة - ما كتبه المستشرق الإنجليزي «ألفريد جيوم» عن تفرد الفلسفة الإسلامية بتأسيسها على الدين الإسلامي . . وذلك عندما قال:

«إن قوة الحركة الاعتزالية - [التي أسست علم الكلام الإسلامي . . والفلسفة الإسلامية قبل عصر الترجمة عن الإغريق] - مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية . .»^(١).

• ثم . . أين هي العقلانية - يا عظيم الفاتيكان - في الدين الذي ينتهك قوانين السببية، ويقرر - في كتابه - أن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك، فيتحول الجبل! وأن الصلاة وحدها كافية في إقدار المصلى على تغيير سير الكواكب، وقلب نظام العالم وتركيبه العنصري؟! . .

• بل أين هي حتى ظلال العقلانية في الدين الذي لا يزال أهله - حتى القرن الواحد والعشرين - يعتقدون أن «تمتمات» ببعض الكلمات اللاتينية، تحول الخبز والخمر إلى

(١) جيوم [الفلسفة وعلم الكلام] - انظر كتاب [تراث الإسلام] ص ٣٧٩ - ترجمة: جرجيس فتح الله - طبعة بيروت ١٩٧٢ م.

لحم معبودهم ودمه! . . ثم «يتناولونه» - يتناولون معبودهم ويأكلونه . . ليذهبوا - بعد ذلك - بفضلات هذا المعبود إلى حيث يعرف الجميع!!

أين هي العقلانية التي تتحدث عنها وتباهى بها يا عظيم الفاتيكان، وها هو القديس «أوغسطين» [٣٥٤ - ٤٣٠ م] يقول:

«أؤمن بهذا لأنه محال أو غير معقول!!» . . كما يقول القس وهيب الله عطا: «إن التجسيد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية، ولكننا نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولاً»!!^(١).
أين هي العقلانية عند الذين يقول كتابهم: «اعتقد وأنت أعمى»!! . . «اغض عينيك ثم اتبعني»!!

● وإذا كنت - يا عظيم الفاتيكان - لم تقرأ ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي عن مقام العقل في الإسلام . . فهل يليق بمثلك أن تجهل ما كتبه علماء الغرب عن هذه العقلانية الإسلامية، ودورها في انتشار الإسلام؟! . . وما كتبه عن لا عقلانية مسيحيتك الرومانية، التي غبشتها وأفسدتها الثقافة الهلينية، وملأتها بالأسرار والألغاز . . ودور هذه اللاعقلانية في هزيمة مسيحيتك أمام عقلانية الإسلام؟!

كيف جهلت - يا عظيم الفاتيكان - ما كتبه العلماء الأعلام الغربيون الذين جمعوا بين فقه الإسلام وفقه النصرانية . . ومنهم العلامة سير توماس أرنولد [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م] - عملاق الثقافة الإنجليزية . . الذي أورد في كتابه الفذ [الدعوة إلى الإسلام] شهادات العلماء والفلاسفة واللاهوتيين والمستشرقين الغربيين على عقلانية الإسلام . . وعلى امتلاء المسيحية بالأسرار والألغاز التي يستحيل فهمها حتى على أهل الاختصاص . .

لقد قال العلامة سير توماس أرنولد:

«ولا يستطيع أى فرد أن يوضح الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جتته من هذا

(١) د. أحمد شلبي [مقارنة الأديان] ج٢ ص ١٢٤ .

الطابع من الفائدة فى نشر الدعوة، توضيحاً يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفسور «إدوارد مونتيه» [١٨٥٦ - ١٩٢٧م] ^(١) فى العبارات التالية :

«الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقييم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق . . إن لدين محمد كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل . . إن الإيمان بالله والآخرة - فى الإسلام - يستقران فى نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن . وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام .

لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحداية فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول . ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا . . وفى هذا تكمن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود الدعاة المسلمين .

وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية - ثم هى تبعاً لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى - أن تمتلك - وإنها لتمتلك فعلاً - قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس .

● وغير شهادة هذا العالم الفرنسى - «مونتيه» - الخبير بالقرآن والإسلام والخبير بالكاثوليكية - يورد العلامة سير توماس أرنولد شهادة اللاهوتى الإيطالى «الأب ماراتشى» Marracci [١٦١٢ - ١٧٠٠م] - وهو الذى نشر القرآن متناً وترجمه بالإيطالية . . كما أسهم فى ترجمة العهدين القديم والجديد . . يورد «أرنولد» شهادة «مراتشى» على عقلانية الإسلام، والتى يقول فيها :

«لو قارن إنسان بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى،

(١) مونتيه : مستشرق فرنسى . ترجم القرآن إلى الفرنسية . ومن مؤلفاته [حاضر الإسلام ومستقبله] .

أو التي هي - على الأقل - من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة - [العقيدة المسيحية] - وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأولى في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول . . .» .

● وغير هاتين الشهادتين الغريبتين على تميز الإسلام وامتيازه في العقلانية - بل وتفرد به - وخاصة إذا ما قورن بالنصرانية - يورد العلامة سير توماس أرنولد، شهادات غريبة على أن هذه العقلانية الإسلامية هي السر في هذا الانتشار الذي شهدته هذه العقيدة الإسلامية . .

يورد شهادة الأمير والمستشرق الإيطالي «كايتاني - ليون» [Caetani ١٨٦٩م - ١٩٢٦م] - وهو الخبير في الإسلام والدراسات الإسلامية . . وصاحب الإنجازات المتميزة في تحقيق التراث الإسلامي - التي يقول فيها :

«إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي .

أما الشرق، الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالأعلى عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زرع أصول العقيدة الدينية ذاتها .

فلما أهلت آخر الأمر أبناء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد المسيحية الشرقية، التي اختلطت بالغش والزيف، وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة وإغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتقى في أحضان نبي بلاد العرب . . .» .

● وغير هذه «الشهادة - الوثيقة» لكايتاني - على أن عقلانية الإسلام هي السر في انتشاره السريع، وانتصاره على اللاعقلانية المسيحية . . قدم «أرنولد» شهادة الفيلسوف الأمريكي «جون تايلور» [Cunon Tylor ١٧٥٣ - ١٨٢٤م] . . والتي يقول فيها :

«إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر هذا الدين الجديد بهذه السرعة فى إفريقيا وآسيا . كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة ، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوية فى السماء ، وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة ، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة ، والقدارة صفة لطهارة الرهينة ، وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة ، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم ، فأزال الإسلام - بعون من الله - هذه المجموعة من الفساد والخرافات .

لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى . ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه . وأعلن أن المرء مسئول ، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب ، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا ، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدنى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المنازعين فى الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهينة ، ومنح العبيد رجاء ، والإنسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية ، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية»^(١) .

إذا كان عظيم الفاتيكان - أستاذ الفلسفة - قد جهل عقلانية الإسلام - كما جاءت فى مصادره - فلماذا تجاهل ما كتبه علماء الغرب فى هذا الميدان . . وهو شهير ومنشور بمختلف اللغات الغربية التى يتقنها عظيم الفاتيكان؟!

أم أن «الغرض» هو «المرض» . . الذى جعل الرجل يتجاهل هذا «المقال الغربى» فى عقلانية الإسلام . . ولا عقلانية المسيحية التى انتصر عليها الإسلام؟! . .

(١) أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٩ - ٩١ . ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة ١٩٧٠ م . وانظر كتابنا [الإسلام فى عيون غربية] ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ٨٨ ، ٨٧ .

● ويا ليت الأمر قد وقف بهذا البابا عند «الجهل» و «التجاهل»!! . .

ذلك أن بابا الفاتيكان - بنديكتوس السادس عشر - قد استند في حكمه على الإيمان الإسلامي بأنه لا عقلاني ولا منطقي . . وأنه «إيمان وثني أعمى»!! . . استند إلى نص منسوب إلى الإمام الفيلسوف والفقير ابن حزم الأندلسي [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ - ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] . . فقال :

«لقد ذهب ابن حزم إلى حد الإقرار بأن الرب الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة، وأنه ما من شيء يلزمه بكشف الحقيقة لنا . .» .

ثم علق البابا - في محاضرتة - على هذه «الفكرة» المنسوبة لابن حزم، فقال - مقارناً هذه «الفكرة» باعتقاده المسيحي - :

«إن القول الفصل في النقاش حول التحول العقائدي باستخدام العنف هو أن عدم التصرف وفقاً للعقل هو أمر مناهض لطبيعة الرب . ولكن بالنسبة للتعاليم الإسلامية فإن الرب مطلق السمو، فمشيئته لا تتماشى مع أي من خصائصنا، بما فيها العقلانية» .

ثم خلص - هذا البابا - إلى وصف الإيمان الإسلامي بأنه إيمان وثني أعمى . . وبنص عبارته :

«ففيما يتعلق بإرادة الله - [في الإسلام] - فإنه ينبغي علينا التعبد بشكل وثني أعمى»!!

وأمام هذا الحكم الفاجر - وليس فقط الجائر - على الإيمان الإسلامي . . لا بد من وقفات :

● إن بابا الفاتيكان - بنديكتوس السادس عشر - هو أستاذ للفلسفة، مارس العمل الأكاديمي وتقاليده البحث العلمي الأكاديمية قبل أن ينخرط في سلك الكهنوت . . ولقد تولى - في الفاتيكان - قبل البابوية «عمادة كلية الكاردينالات» . . ومن تقاليد البحث العلمي - التي يعرفها حتى المبتدئون في هذا الميدان - الرجوع في الاستشهاد بالنصوص إلى مصادرها الأصلية، فهل صنع ذلك بابا الفاتيكان - وهو أستاذ الفلسفة - عندما استشهد بابن حزم، وأسس حكمه على الإيمان الإسلامي بأنه لا عقلاني ووثني أعمى، بناء على هذا «الشاهد» الذي استشهد به؟!

إن أستاذ الفلسفة - الحبر الأعظم للقائكان - قد خان أمانة البحث العلمى . . واستند إلى «شهادة شاهد مزور وكاذب»!! . .

فهو لم يرجع إلى ابن حزم - وكتبه مترجمة إلى العديد من اللغات الغربية - وإنما اعتمد - هذا الأستاذ للفلسفة - على «منهج العنعنات» . . فاستند إلى مسيحي لبناني هو «عادل تيودور خورى» . . الذى لم يرجع هو الآخر إلى المصادر الأصلية لابن حزم . . وإنما أخذ عن باحث فرنسى فى الإسلاميات ، هو «أرنادليز»! . . وهذه سقطة وخيانة لتقاليد البحث العلمى ما كان يليق ببابا القائكان - أستاذ الفلسفة - أن يقع فيها . . خصوصاً عندما يتحدث فى محاضرة فلسفية - عن علاقة الإيمان بالعقل - فى الجامعة التى كان يدرس فيها الفلسفة . . وإلى نخبة من الأساتذة الجامعيين الأكاديميين! . . ثم يرتب على هذه السقطة وشهادة الزور ذلك الحكم الجاهل والفاجر على الإيمان الإسلامى - الذى يتدين به مليار ونصف المليار من البشر - وهو الإيمان الذى يقض انتشاره مضاجع البابا حتى فى عقر داره الأوروبية!

● ولقد ظننت ، فى بادئ الأمر - لحسن ظنى بأمانة الرجل الأكاديمية - أن الأمر لا يعدو أن يكون إساءة فهم منه للفكرة المنسوبة لابن حزم . . وظننت أن ابن حزم يدافع عن طلاقة المشيئة الإلهية والقدرة الإلهية فى مواجهة المعتزلة الذين «أوجبوا» على الله فعل الصلاح والأصلح - الأمر الذى يوهم أنهم قد حدوا من طلاقة القدرة والمشيئة الإلهية - وأن الأمر لا يعدو الرفض - من ابن حزم - لتقييد المشيئة الإلهية والقدرة الربانية . .

لكن . . عن لى أن أختبر مدى الصدق والأمانة فى هذا الذى نسبته البابا إلى ابن حزم ، نقلاً عن «الأساتذة» الكاثوليك - عادل تيودور خورى . . وأرنادليز .

ولم يكن هذا الاختبار بالأمر السهل أو الميسور . . وذلك لأن البابا - أستاذ الفلسفة - قد وقع فى سقطة علمية أخرى عندما نسب كلاماً لابن حزم ، دون أن يقول لنا : ما هو الكتاب الذى قال فيه ابن حزم هذا الكلام؟

إن لابن حزم عشرات الكتب . . وبعض هذه الكتب تبلغ مجلداتها العشرات . . ففى أى كتاب؟ . . أو جزء؟ . . أو صفحة؟ . . وفى أية طبعة من الطبعات يمكن العثور على هذا الذى نسبته البابا إلى الإمام ابن حزم؟ . . بل . . وفى أية لغة من اللغات التى ترجم إليها فكر ابن حزم تم النقل عنه من قبل الذين نقل عنهم بابا القائكان؟؟!

لكن خطر القضية . . وخطورة الحكم الذى حكم به البابا - أستاذ الفلسفة - على الإيمان الإسلامى ، جعلنى أستعين بالخبرة فى التعامل مع المصادر . . ومظان القضايا والأفكار . . حتى هدانى الله فعثرت على المصدر الذى تحدث فيه ابن حزم حول هذا الموضوع - فى كتابه [الفصل فى الملل والأهواء والنحل] . .

ولقد كانت المفاجأة الأعظم عندما اكتشفت الكذب البواح والاعتغال الفكرى الصريح الذى مارسه الحبر الأعظم - و «الأساتذة» الكاثوليك الذين نقل عنهم - ضد أفكار ابن حزم حول طلاقة المشيئة الإلهية ولا محدودية القدرة الإلهية . .

منهج الاعتغال الفكرى على طريقة [لا تقربوا الصلاة] و [ويل للمصلين] !! . .

فابن حزم لم يرد فى كلامه ولم يخطر بباله أن يقول : «إن الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة ، وإنه ما من شئ يلزمه بكشف الحقيقة لنا . .» . . ومن ثم لم يقل إن مشيئة الله منفكة عن العدل والمنطق المعقول والصالح والأصلح . . وإنما ميز بين قدرة البشر المحدودة . . وبين قدرة الله التى لا تحدّها حدود . . وأكد - فى الوقت ذاته - بالنصوص الصريحة اتساق المشيئة الإلهية مع الحكمة والرحمة والعدل والمنطق والعقل . . لأنه - سبحانه - مع طلاقة مشيئته وقدرته ، لا يفعل الظلم ولا الجور ولا العبث ولا الكذب ، مما لا يليق بذاته المتصفة بصفات الجلال والجمال والكمال . . ومن ثم فلا يصدر عنه - سبحانه - ما يناهى الحكمة والعقل والمنطق . . لأن فعل ذلك هو من صفات المخلوقين ، وليس من صفات الخالق . . وهو - سبحانه - الذى كتب على نفسه الرحمة . . والذى لا يظلم أحداً . . والذى لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر . . والذى أحسن كل شئ خلقه وقدره تقديراً . .

لقد كشفت نصوص ابن حزم عن حقيقة الإيمان الإسلامى - الإيمان بمشيئة إلهية وقدرة ربانية لا تعرف الحدود . . ولا تنهاى . . وفى الوقت ذاته منزهة عن مجاوزة الحكمة والرحمة والعدل والمنطق والعقلانية بكل ما تعنى هذه المصطلحات عند الذين يفقهون ويعقلون . . وحتى تتكشف «العورة الفكرية» و «السقطة المنهجية» و «الكذبة الكبرى» التى سقط فيها «أستاذ الفلسفة» والحبر الأعظم للكاتيكان - هو وحزبه - نورد نصوص الإمام ابن حزم حول القدرة الإلهية والمشيئة الربانية فى التصور العقدى للإسلام والمسلمين . . وهو فى هذه النصوص يقول لمن يسأل :

- هل طلاقة القدرة الإلهية - القادر على كل شيء - تجعله فاعلاً للكذب مثلاً - وهو في مقدوره؟

فيقول ابن حزم - في جواب هذا السؤال - :

«إن الله تعالى فعال لما يشاء، وعلى كل شيء قدير . . [وكان الله عليماً قديراً] فأطلق تعالى لنفسه القدرة، وعم ولم يخص، فلا يجوز تخصيص قدرته بوجه من الوجوه . . فإن قال قائل: فما يؤمنكم إذ هو تعالى قادر على الظلم والكذب والمحال من أن يكون قد فعله أو لعله سيفعله فتبطل الحقائق كلها ولا تصح، ويكون كل ما أخبرنا به كذباً؟» .
ثم يجيب ابن حزم على سؤال هذا القائل :

«وجوابنا في هذا . . أن الله تعالى قادر عليه ولكن لا يفعله . . وأنه تعالى لا يجوز ولا يكذب . . ولا يظلم، وأنه تعالى قد أخبرنا بأنه قد تمت كلماته صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته، وأنه تعالى قادر، وليس كل ما يقدر عليه يفعله . . وكل من يدين بأن الله حق مجمعون على أنه تعالى لا يكذب ولا يظلم . . وقد صح إطباق جميع سكان الأرض قديماً وحديثاً، لا نحاشى أحداً، على أن الله تعالى لا يظلم ولا يكذب . .
ولقد قام البرهان على أنه تعالى لا يشبهه شيء من خلقه في شيء من الأشياء، والخلق عاجزون عن كثير من الأمور، والعجز من صفة المخلوقين، فهو منفى عن الله عز وجل جملة، وليس في الخلق قادر بذاته على كل مسئول عنه، فوجب أن البارئ تعالى هو الذي يقدر على كل مسئول عنه . وكذلك الكذب والظلم من صفات المخلوقين، فوجب يقيناً أنهما منفيان عن البارئ تعالى .

فهذا هو الذي آمننا من أن يظلم أو يكذب أو يفعل غير ما علم أنه يفعله، وإن كان تعالى قادراً على ذلك»^(١) .

هذه هي نصوص الإمام ابن حزم الأندلسي، حول الإيمان الإسلامي بطلاقة المشيئة الإلهية، ولا محدودية القدرة الإلهية . . وفي الوقت ذاته تنزيه الذات الإلهية عن كل ما لا يليق بالحكمة المطلقة . . والعدل المطلق . . والرحمة المطلقة . .

(١) ابن حزم [الفصل في الملل والأهواء والنحل] ج ٢ ص ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨ - طبعة مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

لقد تنزه - سبحانه - عن العجز البشرى . . وعن فعل ما لا يليق بذاته المنزهة . . لقد خلق كل شيء بقدر . . وكتب على نفسه الرحمة . . وهو ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] - ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ومن ثم فلا تناقض بين طلاقة قدرته - سبحانه - وبين الحكمة والمنطق والعقل - كما يفهمها الحكماء والعقلاء . .

تلك هى الحقيقة التى «جهلها - وتجاهلها» بابا الفاتيكان - أستاذ الفلسفة - فافترى على الإمام ابن حزم، ونسب إليه ما لم يقله . . بل افترى عليه عكس ما قاله!! . .
لقد قال ابن حزم: «لقد أخبرنا الله تعالى بأنه قد تمت كلماته صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته» .

وافترى البابا على ابن حزم عندما نسب إليه عبارة: «إن الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة»!!

وهكذا بلغ الافتراء حد الفجور . . ثم صعد به إلى حيث عممه على الإيمان الإسلامى، فوصفه بأنه «إيمان وثنى أعمى»!! . . فلم يقف الافتراء عند ابن حزم . . وإنما عممه البابا على الإسلام . . وكل المؤمنين بالإسلام!! . .

وهكذا تأسس الافتراء الغريب والعجيب على فضيحة علمية من «الوزن الثقيل»!! . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .
